القصص

من صور الريف — قصة واقعية

الشقراء المجنونة ...!!

بقلم محمود البكرى

. . . فتاة مثقفة على خلق عظيم ، تناولت من التعليم حظاً غير قليل وفيها شيء من الجمال : عينان ساجيتان ، شعر يشبه أن يكون خيوطاً من ذهب . . . ثم نفس شاعرة متمردة تحس الجمال وتتذوق الأدب . . كانت «فتحية» صورة نادرة فى الفتيات : امتزج فيها سمو الروح بجمال الصورة ، تعلمت فى La mère du Dieu وقرأت جوت ولامارتين ودى موسيه . فظمئت روحها الى حب عنيف ، وعرفت «سامى» فوجدت عنده رياً لروحها الصادى ، فأنست اليه وهام بها ، وكان حب بينهما : حب جبار قوى كأنه الأعصار لا تسيره المنافع ولا تغيره المطامع ولا توهنه أحداث الحياة ، وهو فوق هذا نبيل بصورة لا تقع فى الوهم ، طاهر بشكل لا يتعلق به ظن

. . . وكانا يقضيان حياة فيها حظ من الشعر والخيال : يتقابلان فى الحدائق فيجلسان على العشب الندى ، ويخلوان الى نفسيهما فيأخذان فى فتون من الحديث والأدب ، حتى يتقدم الليل فيفترقان الى عود . . . وكانا يتفقان على الاعجاب بالأدب الفرنسى ، وينفقان فى القراءة وقتاً غير قليل ، ويستطيل كل منهما على صاحبه أحياناً فى رقة ورفق ودعابة

ومضى على هذا الحب سنوات ثلاث . ثم أحيط أبوها بخبره ، وكان صارماً قاسياً شديد القسوة ، عنيداً مسرفاً فى العناد ، فاستدعى فتحية فجأة . .

. . . وكان يوم الوداع ثقيل الظل سريع الخطو . . . وجاء القطار ! فجاشت الدموع فى صدر فتحية ، ولكنها تجلدت ونهنهت عينيها ، وأخذت نفسها بصمت عميق ، وإن كانت روحها تكتم ثورة صاخبة تضطرم فى عينيها الحالمتين فى ذهول واستغراق . . وكانت تخرج منديلها الأزرق الصغير من حين الى حين فتلتقط به دمعة أو دمعتين . . ثم تحرك القطار وغاب فى أحشاء الطريق . فاهتدت الدموع الضالة الى عين فتحية وغلبتها على أمرها ، فاستسلمت للغريزة ، وأرسلت عينيها فى حرارة وغزارة وذلة وصمت . . . ! !

. . . وخطبها الى أبيها رجل كبير من أعيان الريف أوتى بسطة فى المال ، إلا أن بضاعته من الثقافة والعلم مزجاة ، وكان يكبرها بثلاثين سنة أو تزيد ! . . . مانعت وتمردت . وثار بينها وبين أبيها نقاش قصير ولكنه حاد . أيهما أشد إسرافاً فى الجريمة ؟ أهو لأنه يريد أن يقضى على سعادة ابنته ؟ ! أم هى لأنها تخالف أباها فى أن تتزوج رجلا لا تفهمه ، وليس بينهما صلة من عاطفة أو سن أو ثقافة ، وكان جدال عنيف فى شيء لا يحتمل الجدال ولا يستدعى الحجة . لأنه بين لا لبس فيه ولا غموض ، ولأن حق حرية اختيار الزوج لا يسخط الله ويرضى الناس ، يقره العقل ولا يرى القانون بأساً فى أن يسمح به ، ولكن الحق مهما يكن ، ينكره ويلتوى به المكابرون ، والمكابرون لا حيلة فيهم ولا دواء لهم . والوالد يحتال حيناً ويتلطف ، ويقسو حيناً آخر ويهدد ، والفتاة على كل حال تتمرد وتثور . . . !

. . . وأخيراً استقرت ثورتها وانتهت إلى مثل ما تنتهى اليه ثورات النساء فى منازلنا : استسلام مغلوب

. . . وأخيراً ! ! تبددت فى مهب الظلم آمال ، وتحطمت على شعاب العناد أحلام ، وضاعت فى غمرة الطمع أمانى . .

... وأخيراً .. زفت فتحية التى تعلمت فى «La mère du Dieu» إلى الرجل الذى اختير لها وأكرهت عليه إكراهاً . . . أغدق عليها مالا وحلياً وثياباً ، فلم تبهرها هذه المظاهر ، ولم تكسر من حدة نفارها ولم ترد جماحها ... كانت تبكى فى اتصال ومرارة .!

وكان حب سامى لما يزل يستبد بها فينسيها فى النهار الراحة والقرار ، وفى الليل المنام .. كانت تغفو أحياناً قليلة ، ثم تفيق صارخة مضطربة روعتها الاشباح ، وطاردتها أرواح الذكريات فى إلحاح وقسوة ، فراحت حياتها خليطاً مشوشاً من الصور المرعبة ، كانت تحبه حبا طاغيا عنيفاً جعل حياتها فى البعد عنه سلسلة طويلة متصلة من الشقاء

حاولت جهدها أن تنسى : فكانت تخرج إلى الحقول ، وتقرأ كثيراً ، ولكنها كانت تفر من عذاب إلى عذاب

وكان زوجها سخيف العقل ضعيف الرأى ضيق النظر ؛ وعنده أن المرأة لم تخلق إلا لتكون ماء أو شيئاً يشبه الماء يطفئ به الرجل جذوة الحيوانية . . . فاما أن تتعلم أو تقرأ أو تكتب أو تحب ، فكل ذلك حياد عن القصد وجور عن السبيل ، وخروج على العرف ، وانتقاض على التقاليد

كانت الهوة بينه وبين فتحية عميقة سحيقة لا حد لها ولا غاية ولا قرار : انصرفت هى إلى حبها وذكرياتها وكتبها فاستغرقتها واستأثرت بها ، فلم تجعل لشئ آخر فى قلبها مستقراً ولا مقاماً

وتولى هو إلى مزارعه وماله عن كل شئ عداها ، وكان حقير النفس فقير العاطفة مجدب الشعور ، لا يضطرب فى نفسه إحساس ولا تعرف العواطف إلى قلبه سبيلا : كل أيامه بعد أعماله أكل ونوم ... يمر النهار فلا يكاد يتحدث إلى زوجه بأكثر من كلمات آلية معدودة ، وإن تحدث ففى شئون مزارعه وماشيته حديثاً تافهاً ضئيلا لا يدل على معنى ، وإن كان يدفع السأم ويرد إلى الضجر القاتل

ضاقت فتحية بهذه الصور المتشابهة من العيش ، وأسقمها هذا اللون من الحياة المضطردة الباردة ، فاندفع السأم واليأس إلى نفسها اندفاعا قويا

وضاعت فى تيه الذكريات والظلم هذه المخلوقة الشقية التى تستقبل الصباح بالدموع وتودع النهار بالدموع . . . فزعت إلى الكتب تقرؤها إذا كان وجه النهار إلى الضحى ، فاذا أقبل العصر خرجت إلى الحقول مطرقة ذليلة لا تحدث إنساناً ولا تستمع إلى إنسان فتقضى وقتاً ما ، ثم تأخذ طريقها الصامت إلى المنزل فتخلو إلى نفسها فى غرفتها ، ثم تخرج صور سامى فتتحدث إليها وتسكب أمامها الدمع كأنها عابد فى المحراب ..!

. . . وظهر زوجها على صور سامى ورسائله ، فثارت نفسه وارتد وحشاً ضاريا عاتياً ديس عرينه وأبيح حرمه واستحل حماه ، وبدت فى خلقه صورة جديدة : الغيرة الصارخة العنيفة . فمسخت تصرفاته كلها وصبغت حياته بلون قاتم ظالم مستبد

العرض والشرف فى الريف شيئان يهون معهما كل شئ ..!

ومضى الوحش يفكر فى انتقام هائل مروع بعيد الأثر : فكر فى قتلها وفى طلاقها : ولكن هذه الصور لم ترض شعوره المحنق ، ولم ترو نفسه الصادية إلى الدم ، لأن فى كل هذا موتاً سريعاً مريحاً ، ولكنه يريدها أن تموت على مهل فى نزع طويل بطئ

واستقرت نفسه الحائرة أخيراً على تجربة بدأها حالاً ، فعمد إلى كتبها وأوراقها فجعلها وقوداً للنار ، ثم أخذها هى بالقسوة وسوء الحساب : يضربها إذا كان النهار ، ويهجرها إذا كان الليل ، وهو فوق هذا يكلفها من أعمال المنزل مالا طاقة لها به ...

ومضى السجان الجبار فى تجربته والضحية البريئة تذبل على مهل . تمادت بها الآلام فأغرت بها اليأس ، وردها اليأس إلى لون من الحسرة ملح ، عميق يسوقها إلى الجنون سوقا متداركا سريعاً . !

***

كل هذا قصته على أختى عن صديقتها زوج جارنا الغنى

ولأيام خلت كنت أجلس فى حديقتى فى ظل شجرة هرمة إلى جانب الساقية التى تنوح أبداً .. سمعت صرخات متصلة ومتقطعة ، وكلها ثائرة ومجنونة ، وسمعت كلمات مبهمة مختلطة . . . صمتّ وصمتت الساقية وحبست دموعها ، ومالت الغصون على الغدير هامسة « إذن أفلحت التجربة وجنت الشقراء !! »

واستأنفت الساقية نواحها . . . وأرسلت دموعها . . . على الشقراء المجنونة ... !!!

« قلوصنا »

محمود البكرى القلوصناوى